"الفصل الرابع"
ما لم يقله التاريخ

استهلت هذه الفترة في مطلع العقد الرابع من القرن الثالث عشر (1231هـ) حيث كان وسط جزيرة العرب في سكون، بعد توقيع اتفاق الصلح بين مندوب الدولة العثمانية، طوسون ابن محمد علي باشا والي مصر، وأمير الدرعية الإمام عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود، حيث كان علي بن حمد الجد الثاني لصاحب هذه السيرة (عبدالله بن عبد الرحمن بن عبدالله بن علي) مستغرقاً في متابعة أمور تجارته وزراعته في حريق نعام بوادي الفُرع، مؤملا أن يستمر الهدوء في بلدته بعد سنوات من الاضطراب، لكن أنباء كريهة وصلته بأن في الدرعية ما يتجاوز اختلاف وجهات النظر بين أبناء سعود الكبير (أبو شوارب) كما يلقبه بعض البادية، حيث وصل الأمر إلى نزاع يخشى تطوره ليكون أسوء. في لقاء مع أفراد أسرته جرى نقاش حول الخبر، الذي مصدره أحد سكان الحريق له أخ يعمل في قصر أحد الأمراء، وتبين لهم أن الخلاف يتركز حول تدني الدخل، بعد المصالحة مع الأتراك وإن بعض القبائل، بل والمناطق غدت تأبى سداد "العادة" وتكتفي بعلاقتها مع مندوبي الدولة العثمانية، وخلص رأي الغالبية من أبناء سعود أن حال الدرعية "لن يُصلح حاضره إلا ما أصلح ماضيه" وذلك يعني تكفير المخالفين لهم ثم غزوهم وسلب أملاكهم، وبغض النظر عن الاتفاق مع طوسون. لذا باشروا في الخروج نحو الوشم والقصيم، وفرض غرامات على البعض بتهمة التعاون مع الترك، مما دفع الإمام عبدالله بن سعود لمجاراة إخوته، وتوجهوا للبكيرية وباشروا الأعمال السابقة، من حرق الأشجار المثمرة وهدم المباني وسلب الأموال، فتوجه وفد من الأهالي لوالي المدينة، الذي جهزهم للسفر إلى مصر لعرض شكواهم على الباشا. لم يكتف أولئك المتحمسين من أبناء سعود الكبير بذلك، فضغطوا على الإمام عبدالله وبقية الأسرة، للتوجه نحو الحجاز (جنوب الطائف) لاستعادة مجد أبيهم وسطوته في العهد السالف، فكتبوا رسائل لزعماء تلك المناطق طالبين سداد "الخُمسان" كالمعتاد، فتوجهوا نحوا مكة وسلموا مندوب الأتراك رسائل الدرعية الممهورة بختم الإمام، وبدوره حولها إلى مصر.

استشاط والي مصر محمد علي غضباً من مخالفة ابن سعود لنصوص اتفاق الصلح، فقرر أنه إزاء هذا الغدر بالعهد سيعيد إرسال قواته للقضاء عليه، لكن بعد أيام جاءه الناعي بوفاة قائده وولده العزيز طوسون وهو في ريعان شبابه. سمعت في المجلس مصريين يتحدثون عن ذلك، فقال أحدهم أنه مات مسموماً، حيث كانت إحدى الجواري

جالسة ترضع طفله المحبوب، وتشاجرت معها زميلتها التي ركلتها بقدمها، لكن الضربة جاءت في رأس الصغير فشجته ومات، فقرر طوسون إعدام الاثنتين، لكن أخت المرضعة (محظية الباشا) غضبت ودست له السم. وآخر قال خلاف ذلك، وهو أن طوسون ذهب في عيد رمضان للتنزه، وفي رأس البر (غرب دمياط) صادوا له أنواع نادرة من السمك الطيب المليء بالبيض (بطارخ)، لكنه يعيش عند مصب النيل الشرقي في البحر حيث الزّبد والغِرين والقذارة، وأكثر الأكل منه فمات. قيل أنه بعد ذهاب الحزن قرر محمد علي إجراء امتحان لأبنائه ليختار أحدهم لمقاتلة آل سعود والوهابية، لذلك فرش في بهو قصره سجادة كبيرة ووضع في وسطها ثمرة فاكهة، ثم أدخل أولاده الكبار كل على انفراد، وأمر بأن يقوم الواحد بجلب الثمرة، بشرط عدم وطء السجادة أو استخدام أي آلة سوى سيفه القصير، ففشل الجميع ماعدا أحدهم (إبراهيم) فقد طوى السجادة تجاه الوسط، حتى اقترب من الثمرة فغرس فيها سيفه، لذا قرر والده تعيينه قائداً للعساكر المتجهة لنجد، رغم معارضة مستشاريه حول طباع ذلك الابن، فهو متعطش للدماء محب للغدر والخيانة والشر، لكنه رفض نصحهم قائلاً إنه لا يفل الحديد إلا مثله!

طلبُ المدد من سلاح وذخيرة وفضة لم يجد تجاوب فوري في الأستانه، حيث أجابه الصدر الأعظم أن حضرة السلطان مشغول بقمع تمرد أرثودوكسي في البلقان، وعليه التريث بضعة شهور، كانت تلك فرصة ذهبية لإتباع نصائح الشيخ علي بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي أوصى الإمام بعدم العودة إلى أسلوب الغزو الذي نبذه غالبية سكان وسط جزيرة العرب، وبخاصة في ظل وجود عساكر الترك غرب القصيم، في الحناكية والمدينة المنورة، لكنه لم يكن قادراً على مجابهة الأفكار الهوجاء لبعض إخوته، الذين استعدوا لكسح القوات العثمانية بقدراتهم المحدودة. في مطلع السنة التالية وردت أنباء عن وصول قوات ضخمة من مصر، ونزلت في ينبع التي فيها قوة بحرية تركية وضعها طوسون، وعلى الفور بداء كثير من الأعراب في مساعدتهم طمعاً فيما لديهم من فضة، وكانت الجنود بقيادة إبراهيم إبن محمد علي، الذي سارع بالصعود نحو مدينة المصطفي التي يحكمها والي تركي، قدم لهم كثير من الدعم والتجهيزات للزحف شرقاً نحو الحناكية. وصل للحريق بعض الحواشة الذين يجندون العامة، ليعاونوهم في الغزو لقاء نقود وحصة من الأسلاب، وذهب معهم بعض البسطاء لكن الجد علي وكبار أسرة آل خثلان رفضوا ذلك، فهم لا يميلون للتزلف للعظماء والأمراء لمجرد التعالي، بل يتبعون الأصول النظامية للعمل، بخاصة ما يتعلق بالنفير للجهاد، ولا يقبلون الانقياد للمرتزقين من الحروب كائناً من كانوا، كما لا تغريهم أطماع المناصب والأموال للسير في دروب الهوان. بلغهم لاحقاً أن الرهط قد اتجهوا للشنانة، والتقوا مع بعض إخوة الإمام الصغار، ومن هناك وضعوا

خطة ماكرة وجريئة، بالذهاب لمعسكر الحناكية في فرقتين، إحداهما تتجه نحو الشمال الغربي، وأخرى نحو الجنوب الغربي، ثم يباغتوا العدو من شمال وجنوب، خلاف ما استعد له من دفاع جهة الشرق. لكن غدر بعض الأعراب أبطل المفاجأة، كذلك قوة النيران لدى القيادة التركية وكثرة جنود مصر، منعت إحداث أضرار قوية فيهم. ومع هذا فقد دخل الشك في رأس إبراهيم، وكتب لأبيه لمده بالمزيد من الرجال والمال والعتاد، ليتمكن من التحرك للقصيم، مما دفع الإمام عبد الله للخروج من الدرعية، ومعه ما توفر من رجال وسلاح ونزل في عنيزة قاعدة المنطقة. بعد شهرين وصلت تعزيزات جمة للألباني، تحوي مدافع حديثة ضخمة، ومزيد من الضباط الأوروبيين من هنغاريا وبلغاريا ورومانيا واليونان، ومعهم خيول مغولية كبيرة وجمال سودانية وليبية، فشجعه ذلك على مهاجمة القوة السعودية شمال الحناكية ودحرها، ثم سارع لاستغلال ذلك المدد النشيط وتوجه نحو القصيم ليكسب الوقت قبل رمضان. أما إخوة الإمام فقد غادروا أيضاً مع رفاقهم إلى الخبرا والرس، التي توجه لها بعض أهل الحريق، وبعد أن استسلمت البكيرية حوصرت الرس التي رفضت المسالمة، فأمطر البغاة سورها ومنازلها بقذائف من القنابر الثقيلة المدمرة، حتى في عيد الفطر لم يتوقف الرمي، وابن سعود كامن في عنيزة رغم مناشدتهم له للزحف نحوهم وفك الحصار، قاومت الرس بإباء وشمم عدة شهور، سواء من أهلها البواسل أو الشرفاء من الحروب والعتبان الرافضين مساندة الترك، وكذلك أفواج من اليمامة وسدير. وعند اقتراب الحج كتبوا لعنيزة بأن يساندوهم أو يأذنوا لهم في الصلح، ولما لم يردهم تجاوب غادر البعض ليلاً. وصل بعض الحريقيون لبلدتهم يضمدون جراحهم، ويقصون ما عانوه من هول يشيب له الولدان، وكيف كانت قذائف المدفعية تمطر عليهم الحديد والنار والبارود، حتى بلغت المئات في بعض الليالي وهم صامدون يحتسبون الأجر من الله. وبعد الحج استسلمت الرس بعد استشهاد عدد كبير من المدافعين عنها، فتركها الألباني خراب وشد رحاله نحو عنيزة، وحينذاك سقط خط الدفاع الثاني عن العاصمة.

مكاشفة:

لا يتسع الملخص للوقفات المفصلة ونترك ذلك لصلب السيرة، إلا أنه يلزم هنا إيضاح أمر ما، وهو أن أحد الإخوة الكرام من ساجر دعاني لمناسبة عنده قبل سنوات، ولما درى أحد أخوال أبنائه (من الرس) أن أسرتي من مدينة الحريق، بادر بالقول أن انكسارهم عام 1232 هـ كان بسبب تخلي البعض عن مقاومة الباشا، وهروبهم من المنازلة ليلاً، وبينما أتجهز للرد عليه بأسلوب مهذب، حيث كان تعليقه في غاية المجاملة وبابتسام، ولو أنه تحدث بإسفاف ما نظرت إليه ولا حادثته، فخير رد على

السفيه السكوت! لكن أحد الحاضرين أشار إلي بالتريث وحادثه بحدة، قائلاً أيها الصهر العزيز أكلما جاءنا ضيوف من مطير أو حرب أو عتيبة أو سبيع بادرت لتعليق خيبتكم وسوء تدبيركم عليهم، لقد تصالحتم مع طوسون قبل مجيء إبراهيم بسنتين فور سماعكم دوي المدافع، فلما أتاكم الباشا بما هو أعظم أخذتكم العنترية الخرقاء، وألقيتم بأيديكم إلى التهلكة رغم تهدم أسواركم، فلماذا المكابرة ثم تلومون من هبوا لعونكم؟ رد عليه متبسماً بأنه قد قاطعني فعليه الاستماع لما لدي، وبدا عليه أنه ممن يتكلم "بجرح ودواء" فأجبته أن ليس لدي ما أضيفه، سوى ما سمعته من أبي عن عمه زيد بن عبدالله عن جده، بان عدد المشاركين في الرس من آل خثلان أقل من عشرة، وإذا كان هناك آخرون من الحريق فربما أنهم ليسوا من الكثرة، حتى يؤثروا على آلاف الباشا. كذلك رأى الجميع أن الإمام عبدالله وإخوته، كانوا مع جيش من الآلاف على بعد ساعات، ولم يروا من الحكمة مناطحتهم أو دخول الرس عنوة، خاصة وهم يرون الأسوار والمباني تتحول إلى غبار، وعرف الناس أن الباشا حفر نفق ينتهي في وسط البلدة وملأه بالبارود، لكن الله سلم وانفجر في العدو حينما أشعل جندي سيجارته، وتحدث لئيم بالقول إن "النحشة نصف المرجلة" فلم يكترث له أحد. استدعى رجل أحد الصبية وأمره بالذهاب للداخل لإحضار شيء اتضح أنه كُتيّب، وقال إن فيه معلومات مفصلة عن الرس، ما دمت عارفاً ببعض أحداثها، ولما تطلعت فيه عرفت أنه من وضع سيدة، ربما يلخص دراسة أكاديمية قدمتها لنيل درجة ما بعد الجامعية، ثم قال ألمضيف دعه عنك ففيه سب لإسلافكم يا سبيع، فهي تتهم بني صعصعة بأنهم لصوص قتلة وقطاع طرق، أفسدوا أرض نجد في القرون الأولى، فوضعته على المنضدة حيث البروتوكولات الدبلوماسية ترفض قبول أي مكتوب مسيء، مع عدم الدخول في نقضه باستفاضة، وقلت "لو أن غير ذات سوار لطمتنا" ثم أردفت بأن آفة الدراسات الأكاديمية كثرة الهوامش السفلية، عن المصادر المنقولة منها معلومات فاسدة، بقصد التخلص من المسائلة، وبدون تمحيص لمدى دقة تلك المصادر، وخلوها من الضغائن أو المحاباة. حيث كان البعض (وما زالوا) يخطون الأحداث لأجل حفنة دراهم أو حتى وليمة دسمة، لكن المؤسف أن يقوم بذلك مُدرسة وتربوية أكاديمية يفترض فيها الاعتدال، وهل ذكرت ذلك عن قوم إباض التميمي أو نجدة الحنفي أو قرمط الإسماعيلي زعماء اللصوص والقتلة؟ وبينت أن غالبية من بقي من مضر الشريفة هم من ذرية عامر، سواء من عتيبة أو سبيع وغيرهم في الحجاز ونجد.

أثناء حصار الرس كان جد أبي (علي بن حمد) في منتصف العمر، ويكبره بعض أفراد أسرته من الشيوخ والنابهين، ويحث نفسه والجميع على التقيد بتوجيهاتهم. وفي صلب السيرة سنتحدث عن عدد منهم بحذر، وذلك لما أعرفه من "طباع رديئة" لدى البعض، وأقول صراحة أن قلة منا لا تدرك مغزى استخلاص العبر من السير، فهم

لا يرضون ذكر أسلافهم إلا بالتفخيم والتعظيم، وعند أي إشارة لبعض السلبيات يتأففون ويعترضون، غير مدركين أن اجتزاء الوقائع يدخل الريبة لدى القارئ، وإن التهذيب والتنميق مجرد وجه آخر للتدليس المرفوض، لذا فمن يبحث عن التمجيد لأسلافه، فليتوجه إلى المسترزقين من ذلك، سواء من خبراء الإعلام الأسود أو بعض الأكاديميين البسطاء. والصحيح أن ليس كل ما يعلم يقال، وكفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع، وقد أشرت في المقدمة أن كثيراً مما سمعته لم أتحدث به إلا إذا كانت فيه عبرة هامة، كما حفظت للخلف مخطوط خاص عن أمور فيها عبرة جمة، لكن لم يحن الأوان الملائم لسردها. وأدرجت في السيرة نجاحات وانكسارات لأبي رحمه الله على ما فيها من حرج، ولكن استخلاص العبر يستلزم المكاشفة الأمينة، حيثما يستدعي الأمر ذلك حتماً.

ونعود الآن لملخص المكتوب، ففي مطلع العام شعر الألباني في مصر بالحرج، حيث استغرق إخضاع الحناكية ثم الرس سنة كاملة، وأموال طائلة وقتلى وجرحى وخسائر لا تحصى، لذا بعث للسلطان محمود عدد من الضباط الرومان الموثوقين، ليبينوا صعوبة غزو نجد ويطلبوا المزيد من المدد، كما توسلوا منح رتبة عالية لإبراهيم لرفع معنوياته، وقد وافقت إسلامبول على ذلك، بل منحت إبراهيم باشا ثلاثة نياشين في نفس رتبة أبيه، تلميحاً لما قد يحصل عليه، إذا دمر عاصمة الخوارج الوهابية كما يسميهم الترك.

أحس البعض من كبار آل خثلان بخطورة الحال، واجتمعوا لمناقشة ما يجب عليهم اتخاذه، فأوصى البعض بوجوب التجهز للجهاد والركوب للدرعية، وآخرون قالوا أن الإمام عبدالله في المصالحة مع طوسون قبل سنتين، أقر بولائه وطاعته لخليفة الإسلام السلطان محمود، وإن عصيانه يجعل ذلك خروجاً على ولي الأمر، ونزعاً ليد الطاعة ومخالفة لعامة المسلمين، لكن الجد علي رفض إبداء الرأي حول ذلك، فمادام آل خثلان لديهم "كبير" فلابد من مشاورته، فمن ليس له كبير يخلو من التدبير. ورغم معارضة البعض لأن أبو رشيد مريض طاعن في السن، وتغيب عنه بعض الأفكار، إلا أن الغالبية توجهت إلى داره، وبعد جدال وبحث مستفيض قرر كبير الأسرة أن الوضع حرج، لذا يلزم التريث وإذا وصل استدعاء من الإمام فعلى من يرغب الاستجابة التوجه للدرعية. بعد شهر رمضان جاء مرسول من العفيصان أمير اليمامة، من قاعدته في الدلم يطلب من كافة البلدات التابعة له التوجه معه للقصيم، وقد ذكرنا سابقاً مختصر علاقة آل خثلان مع أسرته، التي كانت تتميز بالتعاون والاحترام، رغم أحداث سيئة قليلة أثناء حكم قريبهم العايذي لليمامة، وقد تمكن آل عفيصان من الحصول على ثقة الدرعية، بعد دخول المنطقة في حكم الإمام عبد العزيز بن محمد، وقد وضع الإمام سعود بن عبدالعزيز أميراً على المنطقة الشرقية إبراهيم بن عفيصان،

أما ابن عمه (عبدالله) فولاه جنوب اليمامة من الحاير إلى حريق نعام والخرج حتى الأفلاج واللدام. أبى بعض الحراقى من الذين ذهبوا قبل شهور للرس مرافقتهم، بل وثبطوا همة البعض بتهويل قوة إبراهيم باشا، كما أن الجد علي كاد يتخلف بسبب شدة مرض والده، لكن بعض الأقارب تعهدوا برعايته.

في وقت الحج وصل حشد أهل اليمامة الضخم إلى بنبان، وجاءهم نباء مغادرة الإمام عبدالله بن سعود إلى الوشم، لذا استداروا يساراً نحو الغرب للتوجه إلى شقراء حسب الأمر، كان الركب قبل ذلك في راحة بال حيث رتب قائدهم كافة المستلزمات، من سلاح حديث وذخيرة ومؤونة، لكن عند نزولهم من درب سيل الحيسية تكدرت خواطرهم. ساورتهم الظنون حول انسحاب ابن سعود من القصيم بدون مقاتلة الغزاة، فالوشم ليس محصن ولا بصلابة بريدة، وقد يكون خط الدفاع الثالث والأخير عن الدرعية، وتجادل الحضور حول أنه كان ينبغي إنهاك العدو في صياهد وخبوب وشِعبان عنيزة، لإضعاف قدرته على دحر الوشم وتسلق تلال طويق الوعرة، لكن الجد علي أخبرهم أن ولي الأمر "أبخص" ولما ذهبوا للعفيصان أمرهم بطاعة القادة. عندما أقبلوا على شقراء جاءهم نجاب بقوله أن الإمام عاد للدرعية، وعليهم التريث في منزلهم ذاك، بقوا فيه شهرين يعانون شظف العيش في الشتاء القارس، والأدهى منه القلق حول تطور الأمر، وكان البعض يتوجهون لمرات أو ضرما للتزود بالحاجات. ثم وردتهم أنباء دخول الباشا بلدة أُشيقر (وشيقر وينطقها الفلاليح وشيزر) الواقعة شمال شقراء مباشرة، بدون أي مقاومة فسلمت بهائمهم ومبانيهم وزروعهم ودمائهم، بل تودد إليهم الباشا ونفح بعض التجار والفقهاء والأعيان صرر من الريالات الفضية والجنيهات الذهبية، وكثير من القروش المصرية (نحاس ونيكل) ذات القيمة المتدنية، وبدا أنه يريد جلب ولاء أهل البلدات بالمعروف، ويوفر قواه الحربية لدرة أهدافه عاصمة نجد، الرابضة أعلى تلك التلال العالية شرقاً. ذهب إلى شقراء رجال من أهل أشيقر، ونصحوا القوم بعدم مقاومة الباشا، حيث إنه مندوب ولي الأمر (خليفة اسلامبول) ولا يجوز الخروج عليه، كما أنه لا يزمع سوى إقناع ابن سعود بالكف عن التعرض للقصيم، وأن يحفظ الأمن في العارض، ويسلم حصة الترك من الزكاة الشرعية، وأن الباشا لا يود أن تتعرض شقراء أو الدرعية لما أصاب الرس أثناء المعاندة والحصار، كما حذروهم أن معه جموع غفيرة وأسلحة فتاكة، وعلى القوم أن يجنحوا للسلم ويوقفوا الغزوات الطائشة. لكن ذلك لم ينطل على غالبية أهل شقراء، وبينوا توكلهم على الله، ورفضهم قبول الذل والهوان للترك، وأن بلدتهم منيعة ومحصنة بسور حجري متين وخندق عميق.

آنذاك وصلت إلى مخيم الجد قوات كبيرة من اليمامة وسدير، على رأسها الأمير سعود بن عبدالله بن محمد بن سعود (إبن عم والد الإمام عبدالله) والذي كان أبوه قد تولى

التنكيل بأهل الحريق نهاية القرن الماضي، بعد الحادثة التي أشرنا لها في الفصل السابق، حينما أرسله أخوه الإمام عبدالعزيز، وأرسل ابنه سعود (أبوشوارب) للحوطة للتنكيل بهم أيضاً، وقد كان الأمير عبدالله بن محمد أقل قسوة وبطشاً من ابن أخيه، وكان يصاحبه ولده هذا وهو ما يزال في مقتبل العمر، وتكونت علاقة ايجابية (في معظمها) بينه وبعض آل خثلان، استمرت طيلة السنين الماضية. وبعد أيام من الحفاوة بذلك الأمير، تكدرت الأحوال حينما سمعوا دوي المدافع شمالاً، فأرسلوا سبور للاستطلاع واتضح أن الباشا قد باشر حصار شقراء الباسلة، وأخذ يدك أسوارها ويقطع أشجارها ويحرق مبانيها، لذا قرر البعض في اليوم التالي أن يبادروا للذهاب لنجدتهم، لكن الأمير سعود نهاهم لعدم وجود أوامر من الدرعية بالتحرك، لكن البعض من الحريصين توجهوا ليلاً لدخول شقراء لمساندة إخوانهم في الدين. في الصباح تفاقم صوت الانفجارات في شقراء، بما لم يعهدوه من قبل في حربهم مع الألباني خلال الخمس سنوات الماضية، وبعد يومين صبحهم ركب من أهل الحريق وشقراء، يقصون ما لقوه من هول هناك. تبين أن عساكر الباشا قاموا ليلاً بدفن ثلاثة أماكن في الخندق غرباً، وسحبوا من الممشى المدافع الخفيفة، في النهار باشروا دك الأجزاء الطينية من السور، حتى لا تصيبهم شظايا الحجارة، وعند العصر تمكنوا من عمل ثلاثة ثلوم دخل منها عدد كبير من المشاة، فاستولوا على بعض البنايات الغربية. لكن الأدهى من ذلك هو ما ذكروه أن الإمدادات الأخيرة معها مدافع أشبه بالمنجنيق، ولا تقذف قنابر مثل غيرها، بل أوعية حديدية مليئة بالبارود وقطع المعادن الثقيلة، وهي تنطلق للأعلى عند رجمها ثم تنتكس للأسفل، فتهدم الأسقف عند سقوطها عليها، ثم تنفجر محدثة دوياً مخيفاً مدمرة ما حولها، وبها مواد حارقة تشعل النار في البيوت، وهي ثقيلة ينوء بحملها العصبة أولي القوة، وتحملها عجلتين تجرها الثيران أو البغال القوية. كان البعض يسمي تلك المقذوفات "الحقيبة أو الجنطة" وآخرون يسمونها "الدبة" والمقصود أنها سببت أضرار جسيمة، وأدخلت الرعب في القلوب ففر الضعفاء نحو شرقي البلدة، والبعض أخذوا نسائهم وصغارهم ودوابهم للخارج، وزبنوا التلال أو اختبئوا خلف كثبان الرمل. أوضحوا أن تلك القذائف يشرف على رميها ضباط ليسوا من الروميلي (شرق أوربا) لكنهم من الفرنسيس (فرنجة) ومعهم ايطاليون وقلة من الإنقليز، يستخدمون ريش كتابة وأقلام ذات مداد (حبر) بألوان مختلفة، ويكتبون أرقام وحروف غريبة، ويرسمون أشكال بعضها ثلاثي وآخر نصف دائري، ومعهم أدوات معدنية ينفرج بعضها كالأصابع، وأخرى مستقرة تستخدم لدراسة ميل المنجنيق ومكان سقوط المقذوف، ثم يعدلون الوضع لتحسين دقة التصويب.

بعد يومين توقف القصف، وتوافدت جموع نحوهم بعضهم يتجه جنوباً يريدون اليمامة، وآخرون يريدون ما وراء النفود غرباً، ثم وصلهم متعب العفيصان نازلاً من الدرعية،

وسلم الأمير التوجيهات بأن يذهب مع معظم المقاتلين معه جنوباً نحو ضرما، وأن يتوجه البقية مع عبدالله العفيصان شمالاً إلى مرات للدفاع عنها. كما جاءهم قوم من أهل شقراء يقصون عليهم ما جرى عندهم، وبينوا أن المسلمين في شقراء دافعوا بحماس وهمة عن بلدتهم، وأنزلوا بالروم خسائر فادحة في القتلى والجرحى، لكن بعد أيام التقى أهل الحل والعقد من تجار وفقهاء، وبعد مداولات مستفيضة قرروا أن دك المدفعية الهائل سيهلك الحرث والنسل والمال، ومن الأفضل مهادنة الطاغية في أيام بدل شهور. وعزموا على إرسال عدة وفود له للمقاولة حول ذلك، لكسب الوقت ريثما يتمكن بعض الأعيان من الخروج مع ضعفائهم وأموالهم للدرعية، فوجدوه عابساً مقطباً غير مرحب بهم ولديه شروط قاسية، منها دفع عوض باهظ عن نفقاته، وهدم السور وجعل ركامه ردم للخندق، ولم يتودد لهم كما فعل مع غيرهم. كان حول الباشا لفيف من الروم وحشد من أعراب القصيم، معظمهم من عتيبة وحرب ومطير، ولا نستثني قلة من سبيع فالكثير تراودهم خواطر عن قرب الانهيار، لكن سبيع في الحجاز ونجد ليست غفيرة العدد، ولا من الجماعات الأرنبية سريعة التوالد! كما تشتهر على مدى طويل بحفظ العهد، إلا في استثناءات تؤكد القاعدة ولا تنفيها. علم كبار شقراء من البعض أن الباشا كان يزمع استمرار دك البلدة، حتى يساويها بالأرض لغايتين في نفسه، أولاهما تدريب ضباطه على دقة تصويب المقذوفات من المدافع الحديثة، وثانيهما جعل البلدة عبرة لمن هم أعلى التلال، عسى أن يستسلموا له ويكفوه مشقة الصعود نحوهم. لذا أرسلوا إليه نفر من البسطاء لحثه على قبول المصالحة، فعرضوا علاج جرحى عساكره لما لديهم من مهارة في "حكمة الطب" كما استحلفوه بحق النبي الذي احتفلوا بمولده تحت قذائفه، فتبسم لأول مرة قائلا أن المولد كان قبل مجيئنا لكم، ونعرف أن الوهابيين "نواصب" يناصبون النبي وآل بيته العداء والبغض، فسارع أحدهم بالقول بل لا نعرف ما هي الوهابية، لكن علمائنا يقولون أن صلاتنا تبطل إذا لم نصل عليه وآله فيها، وأما آخر فقد قال إذا القصد تدريب عساكركم فهذه مرات، لا تبعد عنا سوى ساعتين، انفرجت أسارير إبراهيم فتبسم وأمر معاونيه لوضع شروط التسليم، وكان من بينها دفع بعض المال، ونقل كثير من أخشاب المنازل مع قافلته جنوباً، ولابد من الإشارة أن أحاديث المجالس لا تحوي كل الأمور الهامة، لكنها تتضمن ما علق في الذاكرة وبخاصة ما يلمز آخرين ذكرناها للعبرة.

مر الجيش قرب مرات لكن الألباني استصغرها عن غرضه، وأشار عليه بعض العرب أن يتوجه لضرما، واستحسن ضباطه ذلك لأنها أكبر، وخوفاً من خروج المرابطين بداخلها لمهاجمته من الخلف عند صعوده التلال، كما أشار أحد العتبان أنها قريبة من مطلع القدية الوعر، الذي سيمكنه من الوصول لجنوب العاصمة، أما درب الحيسية فسيقوده نحو شمالها فقط. هبت نسائم جنوبية دافئة على الأرض شمال ضرما،

فقرر الزاحفون أن يحطوا رحالهم ويستريحوا في ذلك المكان الطيب، لكن بعد يومين تغير الحال وظهرت سحب جفيلة من جهة القبلة، ثم جاءت سحب داكنة من شمال غرب، وانفتحت السماء بماء منهمر سالت منه الشعاب غرب طويق وأعقبتها ريح عاتية، ثم هبت عواصف من الشمال الشرقي ببرودة الزمهرير. أرسل الأمير سعود فرقة استطلاع متنكرة في هيئة رعاة معهم خثلاني، وعادوا بأنباء عن ضخامة ذلك الجيش، وما يحويه من معدات حربية ثقيلة وفتاكة، وكيف أن خيامهم قد قصفتها الرياح العاتية، بل أن جهلهم بالأرض جعل البعض منهم يسقط في الماء المتجمد، حيث يسير الخيالة في الأرض الموحله ويطئون الماء المتجمد من شدة البرد، لكن بعضهم يقع في حفرة عميقة (قدر قامة) أعلاها عليه طبقة ثلج، وهم يحسبون أنها لا تتجاوز شبر ماء لكنها دركال يهوي فيه الحصان وراكبه. لم يُسمع أحد من بين تلك الألوف يرفع الأذان أو ينادي لإقامة الصلاة، بينما شوهد بعض صغار عمالهم يصلون منفردين وخلسة، وتصدح لديهم أصوات المعازف وراقصات الغجر والصلب، وتنبعث من المخيم روائح كريهة من التنباك والمسكرات. بادر الأمير لإرسال طلب المزيد من الرجال والسلاح، وكذلك بعض المال حيث وفد إليهم أعراب من عند الترك، يعرضون تقديم المعلومات والمساندة لقاء سداد بعض مصروفاتهم؟ عاد البريد بالجواب سريعاً حيث يقطع المسافة بين ضرما والدرعية في يوم واحد، وفيها وعد بوصول إمدادات غفيرة خلال أيام، وخبر إقامة تعزيزات لأبراج الدفاع على طول درب الحيسية، لعرقلة صعود طويق من قوات العدو، فدخل السرور قلوب المجاهدين في ضرما. أما الباشا فقد كان في هناء وحبور رغم برد برج الدلو القارس، وقد أرسل بشارة لوالده محمد علي الكبير في مصر، بسقوط آخر المدن الكبرى قبل الدرعية (شقراء) كما يفيده أن كافة البلدات شمالها (المحمل وسدير) قد استسلمت له بلا قتال، وأن وفودهم تتقاطر عليه معلنة الولاء والطاعة، ورغم أن العاصمة لا تبعد عنه سوى بضع ساعات، إلا أن الطريق الجبلي نحوها وعر ومحصن، لذا طلب المزيد من المدد العاجل، حتى يتمكن من دخولها قبل رمضان. كانت إقامة الجد علي في ضرما في سفر مضني، خففه صحبة الكرام من أهلها، الذين تربطهم بأسرة آل خثلان مودة قديمة، وأكثرهم يتجولون بدوابهم للرعي جنوباً حتى نساح وماوان ويصلون أحياناً للحريق، والعلاقات على ما يرام في معظم الوقت عدا هوشات يسيرة كما أشرنا سابقاً، وقد أصيب بألم في صدره من شدة البرد، عالجوه بالرقية الشرعية والكي والطبيب الأعجم (فلفل أسود) الثمين وارد مسقط، وعافاه الله منه بعد أيام. وصل عندهم رجال مسلحون معهم كثير من البارود وقطع الرصاص، لخلط حشوة البنادق السائدة آنذاك، على رأسهم اثنان من إخوة الأمير سعود بن عبدالله بن محمد، وعدد من أقاربهم ومماليكهم، وقد احتفى بهم الجد حيث يعرف والدهم عندما جاء للحريق قبل ربع قرن، وكان كثير من الموجودين لا يعيرونهم انتباه، ويعرفون فقط ذرية ابن عمهم سعود بن

عبدالعزيز بن محمد. كانت تعقد جلسات عديدة للأمراء، مع أناس من أعيان ضرما والسبعان ويشارك في بعضها الجد، يتداولون فيها إمكانية شن هجوم ليلي مباغت على الغزاة، ويصرحون بذلك أمام بعض الغرباء من المتحسسين، حتى يجعلوا الباشا في قلق وتوتر يكلفه المزيد من الحراسات، ويحضه على الرحيل من مكانه. وفي بعض الأوقات تكون جلسات للترويح، بسرد سيرة ومغازي المصطفى والصحابة، أو الحديث في التاريخ والحكمة والشِعر وفي أمور المنازل والقبائل. تحدثوا عن تاريخ ضرمى التي ترسم أحيانا ضرماء، وأنها قديماً (العصر الجاهلى) تسمى قرماء تبسيطاً من قول "قر الماء" حيث تستقر حولها بعض المياه المنحدرة من سيول طويق الغربية، لكن اتساعها جاء أثناء حدوث صعوبات في سدير نهاية القرن العاشر، فهاجر إليها الكثير منها ومن برك. وشيوخ ضرما يقربون من بعيد لمحمد بن سعود مؤسس الدولة، فهم مصاليخ ودروع من بنو حنيفة ليسوا من نسل مقرن بن مرخان، الجد الخامس لابن سعود، لكنهم مريديه (مُردة) من ذرية مانع المريدي الجد الأعلى. كانوا يمضون الأمسيات في ذكر ما ورد في الشعر القديم للأعشى وجرير عن البلدة، ويتجولون نهاراً في الزراعات المجاورة، حيث ينبت أحد أفضل أصناف القمح الصلب، الذي يصل أوروبا منذ قبل الميلاد، ويسمونه في اليونان "دورم" وهو مشتق من ضرمى، كما ينبت البطيخ والدباء والقثاء والباقلاء لوفرة المياه وجودة التربة. ويسكن البلدة آنذاك عائلات من سبيع وتميم وحنيفة وقحطان، وفي العصور البعيدة كانت موطن لبني نمير من صعصعة، الذين تهاجى شاعرهم مع التميمي فرد ببيته الشهير "فغض الطرف إنك من نمير" لكن أهالي ضرمى أفادوه بعدم وجود أي نميري في البلدة آنذاك، وقد أوضحنا سابقاً ما جرى من تهجير لسكان نجد، في القرن الرابع زمن القرامطة والفاطميين. ذات ليلة كان أحد الأمراء متكدراً، فأفضى لهم بما يدور في خلده من الضيق، إذ قال ما بال بعض العرب يعملون السوء مع من لم يبتدئهم به؟ فلما سألوه الإفصاح قال هي ثلاثة أمور، أولها "المنة" فيأتينا المرء بالقول أنه وأهله فعلوا معنا كذا وكذا، أفلا يعلم أننا نرى الحاضر أولى، لكننا نترفع عن الرد عليه بأن ما يهم هو ما يعمله الآن، والثاني هو الطمع فيأتينا أحدهم بهدية، كمِدخن أو فرس أو ناقة لا حاجة لنا بها، ثم بعد قضاء لزومه يرسل لنا أحد أقاربه ليتقاضى الثمن، فتصير "هدية وأذية" والثالث هو الدناءة حيث لا يخجل بعضهم أن يعرض علينا الزواج بأخته أو بنته أو قريبته، لغرض في نفسه لا يستدعي منه ذلك. كاد الجد أن يتحدث لكن أحد سبعان ضرمى أكبر منه، سارع للقول متبسماً وماذا بشأن الغدر؟ فأجابه أن هذا يتعلق بتقلب الهوى والمصالح، وهو شائع لدى الرحل بين البلاد، ثم تساءل عن رأيهم فيه فأجابه الجد "حاشا أن يكون فينا ذلك " ومن رابع المحال أن نقوم به، واستفسر أحد الجلوس عن الثلاثة الأخر فرد عليه أنها "الغول والعنقاء والخل الوفي" فدعا الله أن يكون ذلك دوماً. كان الجد يدقق البصر في الأمراء، فلاحظ تمسكهم بالسنة من شوارب

محفوفة، ولحى لا تزيد عن القبضة إلا قليلا، كما أن الملابس غير مسبلة وهي من البجاد، أي الثياب المزينة بخطوط طولية ملونة تجعل المرء يبدو أطول من حقيقته، وليست موشاة بالقصب والخيوط الرفيعة المذهبة، كما لاحظه في لباس إبن عمهم الإمام سعود رحمه الله وأبنائه، وتبينت قلة المال في أيديهم واضطرارهم للاقتراض للدفع للمستعطين الكثر.

بقي جيش العدو في مقره يصلح أحواله، مسرورين لتوفر عليقة الدواب، بعد أن اخضرت الأرض، وبداء البرد يموت عند دخول الحوت، ثم قرروا الرحيل متجهين نحو ضرما الطيبة، حيث استغرقوا أيام يدرسون أرضها، وشاهدهم الجد يجرّون بصعوبة مدافع صغيرة أعلى أحد التلال الشرقية، بعد ذلك اقتربت خيالة الترك من شمالي السور بعيداً عن البرج الحجري في الركن، وطلب المدافعون الإذن بإطلاق النار عليهم، لكن الأمير سعود أمرهم بالتريث وعدم المبادأة بالرماية، وأمضوا ليلتهم في قلق من مباغتة قوات الباشا بالهجوم، وكان الجد علي مع مجموعة الحراسة الليلية، وانقضت المناوبة عند أذان الفجر. لم يكد يغفو قليلا قبيل طلوع الشمس، وإذا دوي المدافع يصم أذنيه وسمع صرخات استغاثة من الطرف الشمالي، فهرول ومعه بعض أفراد الأسرة بسلاحهم وذخيرتهم، وتسلقوا منصات الدفاع وباشروا قنص جنود العدو المقتربين من ثلم حدث في الجدار، وتمكنوا بعون الله من صدهم وأجبروا على الانسحاب شمالاً، وعند ذاك تعاظم دور المدفعجية وصبوا حمم ملتهبة على طرف البلدة، أدت إلى هدم بعض البنايات وإحراق أخرى، ثم تكرر ذلك على شطل أكثر عنفاً في اليوم التالي، فانهدم جزء من حائط البلدة لم يسع المدافعين ترميمه، وتساقطت البيوت على من فيها، وأصيب الجد علي برضوض طفيفة عندما إنهار سقف خشبي بجواره، واستشهد اثنان من بني عمه وآخرون من أهل الحريق، أما أهل ضرما الأشاوس منهم ثلاث مائة أو أكثر في يومين، بينما احتمى الأمراء وشيوخ البلدة في قصر حجري مرتفع، كمن على سطحه عدد من مرافقيهم ومماليكهم، وأهلكوا العشرات من الترك في دفاعهم المستميت. بعد الصبح استغربوا من سكون المدافع، وتوقف الفرسان بعيداً عن السور، وأخذ الجميع يتساءلون عن السر في ذلك، وظنوا أن هناك أعمال حفر نفق، فقد كانوا يسمونهم "ترك خونة" أما أولئك فيقولون عن المسلمين "عرب خيانات" لذلك سارع الجد مع رهط من البواردية (قناصة بالبارود" وحادي البصر لتسلق الأبراج، لرمي من يعملون في الحفر فلم يروا أحد، لكن بعد قليل اقترب من الجهة الشمالية الشرقية أربعة رجال باللباس النجدي، وتوقفوا بعيداً يشيرون بكوفياتهم، فأرسل لهم الأمير ثلاثة يستطلعوا شأنهم، ثم عادوا معهم سوياً إلى الداخل. علموا بعد ذلك أنهم بعض كرام أهل أشيقر، جاءوا بنباء موافقة الباشا على هدنة يومين، ليخرج الجرحى والصغار والنساء والعجزة من البلدة آمنين، ولا يبقى

سوى الأشداء والمقاتلين، لم يحضر الجد اللقاء مع الأمراء وأعيان البلدة، لكن وردهم فيما بعد أن الكثير رفضوا ذلك، معتبرينه توطئة للاستسلام لاحقاً، وقد نصحهم الأشيقريون بالقبول وعدم إلقاء أنفسهم وأهلهم في التهلكة، فعارضوهم بأن التهلكة هي قبول الدنيئة من الكفرة، فأوضحوا لهم أن الباشا يزمع جعل البلدة عبرة للدرعية، وأنه سيجعل عاليها سافلها على من فيها، وحثوهم لقبول العرض والسلامة. ثم يبدو أن الأمراء قد وافقوا على ذلك، حيث وصلت قافلة كبيرة من البغال والحمير لنقل المصابين، استمرت بقية النهار وجزء من هزيع الليل واليوم التالي، ولوحظ أن بعض المقاتلين من ديار أخرى رافقوهم، حيث أسفر الصباح عن بقاء نفر قليل في ضرمى. وقد تشتتوا في عدة نواحي حيث غادر البعض نحو "أثيثية" وينطقونها وثيثيا، ومنها تفرقوا فذهب ناس نحو مرات وشقراء، وآخرون اتجهوا إلى قرى المحمل وسدير، بينما صعد نفر درب السيل نحو الدرعية، وقلة ذهبت لليمامة بتسلق أم قديد أو عبر نساح نحو الدلم. أما العدو الخبيث فاستغل الفرصة لتجهيز هجوم التفافي على جنوب المدينة، فقبيل الفجر باشرت المدافع المرتكزة على التل الشرقي في دك البلدة بشدة، ثم فوجئ من تبقى من المدافعين بكوكبة من الفرسان تظهر من جهة الجنوب، على رأسها خيالة روم يمتطون صهوات جياد مغولية ضخمة، ويتبعهم حشد من مئات الجنود معظمهم مشاة وقلة على هجن أو بغال، وهم متجهون نحو هدم ضيق في السور، لذا سارع الكثير نحو برج في الركن الجنوبي الغربي، وأعدوا أنفسهم لرماية المهاجمين الذين وصلت طليعتهم من الفرسان أولا، لذا لم يصعب التصويب عليهم وقنص مقدمتهم، تجندل بعضهم على الأرض جرحى أو قتلى، وتعثر آخرون في الركام المتساقط من تهدم الجدار، ولما وجدوا صعوبة النفاذ رجعوا القهقرى بعيداً وسحبوا جرحاهم. ساد سكون قصير ثم شاهدوا اثنان من العرب وروومي يرفع خرقة بيضاء، وهي علامة غير شائعة في نجد لكن المسلمين فهموها، وأرسلوا خمسة مسلحين ليحادثوهم خارج السور، وفهموا أنهم يريدون الأمان وسحب رفاقهم من داخل البلدة، وقد رفض الأمير سعود أن يأتي بعض جنودهم للمعاونة، لكنه أرسل بعض رجاله لمساعدة العدو في إخراجهم. بعد ذاك عادوا قائلين أن القوم كانوا حريصين على اثنان جرحى، أحدهما جراحه بليغة وتوفي أثناء إخراجه من المدينة، وربما أنهما من أقارب الباشا، لكن أحد المماليك قال أنه لاحظ أن أحدهما (يوسف) مُطَهْرّ (مختن) وهو غير شائع لدى الروم، وقالوا له أنهما من أبناء "رافع أذان الجامع" وثالثهما تمكن من الفرار عندما اشتدت عليهم الرماية، أخذ البعض يتقول الفخر بإصابتهما، ونفى الجد علي أن يكون متأكداً أنه قد رمى أحدهما، لكنه أوضح أنه ركز هدفه نحو اثنان ذوا زركشة ومذهبات على لباسهم. قبل الظهر جاءهم اثنان من الوشم يعملون مع عسكر الباشا، وأفادوهم أن ذلك القتيل مقرب كثيراً من محمد علي، ويسمونه يوسف أذان وأبوه مؤذن الجامع من أشد المتعصبين للمذهب الحنفي، ويبغض

بشدة النجديين ويصفهم بالخوارج النواصب، وأنهم أشد خطراً على الإسلام من الروافض، والواجب قتلهم وسلب مالهم وتدمير بيوتهم حيث إنهم كفرة، يبغضون النبي وأهل بيته ويصدون الناس عن الدين الحق، ويروجون للبدع والضلال وأنهم الفرقة الهالكة التي حذر منها عليه الصلاة والسلام. وأن ذلك المؤذن لديه أربعة أولاد، أمرهم جميعاً بالنفرة لقتال خوارج نجد، مخالفاً نصيحة الباشا بإرسال واحد فقط، فقتل أحدهم في الحناكية وهذا الثاني والثالث جريح، لذا فقد قرر العدو شن هجوم كاسح لتدمير ضرمى على رؤوس من فيها، وأوصوهم بسرعة ترك البلدة قبل الفناء تحت أنقاضها، لكن المدافعين أغلظوا لهم القول وطردوهم. قرر الأمراء التداول مع وجهاء الحضور على انفراد، وبينما هم كذلك أصمت آذانهم زمجرة الانفجارات، ودوي المدافع بكثافة لم يعهدوها من قبل، وأخذت الدبات الحارقة وصناديق المعدن المليئة بالبارود تنهمر عليهم من الاتجاهات الثلاث، وسارع الأمراء البواسل للصعود للطابق العلوي من قصر الشيوخ، وتوجه الكثير نحو الجهة الجنوبية القصوى، أما الجد فقد هرول مع نفر من آل خثلان وحشد من سبعان البلدة إلى ألبرج الشمالي الشرقي، ولم يشاهدوا أحد من الجنود وإنما دخان أبيض وأزرق كثير. تشاوروا بينهم حول النزول والخروج من إحدى البوابات، لمهاجمة المدفعجية وإحراق ذخيرتهم، حيث العادة ألا يبقى الكثير حول المدافع، بل يتأخرون يسيراً للخلف، لذا غادر أكثر من ثلاثين مقاتلاً بسلاح خفيف، منهم اثنان من آل خثلان وبعض أهل الحريق والوشم وسدير، والغالبية من ضرمى يعرفون الطريق من جهة التلال الشرقية، وتجمعات المياه من مطر الأيام الماضية. بعد الظهر ازداد القصف المدفعي حدة، وتوالت قذائف الحمم تدمر المباني وتسد السكك في البلدة، مما ألزم الأمراء للنزول من مكانهم المرتفع، ولجاء الجميع إلى المنازل الحجرية الصغيرة، يحتمون من القنابر المتساقطة حولهم. قبل العصر عاد خمسة من الخارجين لتدمير المدافع، في حالة مزرية بعضهم مجروح، وبينوا لهم أن الوضع شديد الصعوبة، وأنهم تمكنوا أولاً من قتل فرقة المدافع الصغيرة على التل الشرقي، لكنهم لما توجهوا شمالاً جابهتهم حشود نظامية من عساكر الباشا، وزرافات من عصب الأعراب الموالين لهم، وكانت بنادقهم ذات مدى رماية لا يتجاوز مائتي خطوة، أما العدو فمعهم سلاح يرمي أبعد من ذلك، وأن بقية رفاقهم سقطوا على الأرض، وبعضهم تسلق الجبل الشرقي للنجاة ببدنه. أدوا صلاة الخوف واستمروا يردون على رمي العدو، حيث ظهرت كتائب تتجمع جهة الشمال، وحمدوا الله أن البلدة شبه خاوية من النساء والصغار والعجزة، ثم لاحظوا تركز قصف المدافع على الناحية الشمالية الغربية، وتوقفها عن بقية أركان المدينة، لذا وجه الأمراء بعض المتطوعين للذهاب إلى تلك الناحية، لصد أي محاولة للتسلل منها. عند الأصيل واصفرار الشمس صاح أحد المراقبين، وحذر من توجه جمع غفير من الجنود من الناحية الغربية، وصعد نحوه أحد العارفين ونزل مسرعاً، يقول أن عددهم يبلغ عدة

آلاف، وقد التفوا يساراً يزمعون التوجه نحو جنوب ضرما، لذا أمر القادة بسرعة إشعال النيران في المنازل المجاورة للجزء المتهدم من السور، وأن يكمن القناصة هناك لقتل من يحاول الدخول للبلدة، وعند الغروب جاء آخر في فزع ينذر بتوجه آلاف من العسكر نحو شمال البلدة بعد أن توقف رمي المدافع. جرى ترتيب تواجد فرق من المناضلين للاختباء في المنازل على السكك المطروقة، وأُمر الجميع بعدم التجول داخل البلدة في الظلام، حيث يجب إطلاق النار على كل من يمشي في الأزقة. عندما دخلت قوات العدو أجزاء من البلدة كان القمر بدراً ساطعاً، عاونهم على معرفة الدروب والطرق، إلا أن رحمة الله نزلت على المسلمين، فجاءت غيوم كثيفة جعلت الظلام يحل في كافة الأرجاء، والترك لا يعرفون المكان ويضيعون في السكك، بينما المرابطون يرافقهم أهل البلدة العالمين بذلك، وكانوا يقنصون بسهولة من يدخل في طريق مسدود، الذين لسوء بختهم لا يعرفون العربية، ويلاحظهم المدافعون فيرمونهم بالبارود من قرب، ثم يجهزون على البقية بخناجرهم ورماحهم، ولم يتجرا أحد من أعوان الباشا العرب على دخول البلدة في الظلام، وهم يعلمون أن فيها أشاوس لا يبالون بالموت في سبيل العون لعباده المخلصين، فانهمرت السماء بالمطر الغزير، لذا انطلقت أبواق العدو تزمر بإشارة الانسحاب، تاركين ورائهم المئات من قتلاهم. وجه الأمراء بعض خدمهم لأخذ مشاعل نارية، وجلب الشهداء من المسلمين للصلاة عليهم ودفنهم في ثيابهم بلا غسل ولا كفن، بينما دعوا أعيان البلدة والمرابطين معهم لتناول طعام خفيف، آمنين بعدم قدرة العدو على معاودة الهجوم في الظلام والمطر. جرى نقاش مستفيض حول تدبير الحال، ورأى الغالبية أهمية مغادرة حطام البلدة إلى الدرعية، مادام العدو مشتغل بنفسه في العراء والرياح والمطر، لكن الجد علي أشار بوجوب التفرق في عدة أنحاء، لأن بعض العرب الخونة لا يؤمن مكرهم وموالاتهم للباشا، وطلب أن يكون مع الخبرة المتجهة لمساندة أبراج الدفاع على درب الحيسية، قال أحدهم أن تلك الأماكن بها عدد كبير من جنود الإمام إبن سعود، ومعهم مدافع تعرقل سير المشاة والدواب المعادية، قال آخر إن تلك المدافع ضعيفة وهي مما غُنِمَ من الخوالد وثويني قبل سنين، بعد تضاد الآراء قرر الأمير سعود بن عبد الله الفصل، حيث سيتوجه شرقاً لصعود الجبل ثم يسلك وادي نمار حتى يصل جنوبي حنيفة، وأن يتوجه أخوه محمد عبر التلال الشرقية شمالاً ليصعدوا الحيسية قبل الصبح، وأن يذهب أخوه فهد مع الجرحى جنوباً، مبتعدين عن مخيمات العدو ويصعدوا عقبة الأديراب، ثم ينحدروا شرقاً بشمال نحو الحبونية والدرعية، سارع بعض أهل اليمامة (ومنهم حراقى) بطلب الإذن للتوجه إلى نساح، حيث أهلهم وبيوتهم عورة! فتبسم الأمير موافقاً مع تمتمة بقول أن الدرعية ليست بحاجة الآن للكثرة، بل للإخلاص. نبه أحد سبعان ضرمى أن الطريق نحو وثيثيا تحتشد غربيه عساكر الترك، وقال أحد مماليك آل سعود أن الليل قد أوشك على الانتصاف، وتلزم سرعة المبادرة لتجاوزهم قبل

الفجر. تقرر أن يغادر أهل نساح أولاً في قافلة واحدة جنوباً، حيث هم بعيدون عن نظر الغزاة، ويتجه الأمير فهد وموكبه جنوباً بشرق، أما البقية فيتسللون في مجموعات صغيرة شرقاً حتى لا يفطن لهم العدو، ويكون التجمع بعد ساعة عند "الحمضة" التي عرف الجد أنها النصب المرتفع فوق أحد التلال شرق ضرما، عند شعيب البطين غرب سلسلة طويق، وذاك العلم على هيئة مئذنة صغيرة أو إصبع ضخم يرى من على مسيرة عدة ساعات نهاراً، كما يمكن تمييزه عن قرب في الليالي المظلمة. وصلوا هناك قبل أهل ضرما متخفين كأنهم رعاة، وتأخر من كانوا يحملون الكثير من أمتعتهم وأثاثهم، تسير ركائبهم ألهوينا لشدة الثقل وأناخوها بعيداً، وجلسوا للقهوة وحدثوهم أن التل يسمى الحامض، حيث في جانبه ينبوع صغير مائه مر، أما المنطقة حوله فتكثر فيه شجيرات ونفل "الحميض" الطيبة للرعي. بعد تكامل الحضور وترتيب الحال، غادر الأمير سعود وصحبه باتجاه المطلع الشمالي لعقبة أم قديد الوعرة، أما الجد فتوجه مع جماعته نحو طرق ملتوية بين طويق وتلاله الغربية، حيث تنكسر بعض السحب ويظهر لهم ضوء البدر فيقتدون به، مع الخوف أن يشاهدهم أحد الأعراب فيشي بهم. بعد ساعتين من سيرهم شمالاً تكاثفت السحب وساد الظلام الدامس، وتساقط رشاش خفيف من السماء، وخاف من لديهم بنادق مع قديمة ذات فتيل خارجي أن يتعطل سلاحهم من الرطوبة، كما عادت الشعاب الصغيرة تجري مياهها، مما اضطرهم للانحراف غرباً في خطر الاقتراب من مواقع الترك. ثم واجههم شعيب متوسط تنحدر إليه سيول من السفوح الغربية لطويق، قاس الادلاء عمقه فوجدوه أدنى من الركبة بقليل لكنه هادر، أخاف بعض المشاة والدواب القصيرة ذات الحمل الثقيل، كما علا ثغاء بعض الجمال لكن الله سلم وتجاوزوه، إلا أنهم بعد قليل شموا رائحة تنباك عسكر العدو، ثم جاءتهم نسائم طبيخ وتمكن البعض من رؤية الرجال يتجولون عل ميسرتهم، فقرر الأمير محمد سرعة الانحراف شرقاً نحو أرض صخرية وعرة، لذا استمر ذوو الأحمال الثقيلة في سكتهم. تيقن الجد علي أنهم لا محالة سيظهرون للخصم فور حدوث فجوة في السحب، فذهب إليهم ينصحهم بالتوجه يميناً، لكنهم رفضوا بحدة قائلين أنهم فقدوا بيوتهم ولا يريدون فقد متاعهم أيضا، استشاط الأمير غضباً وأمر بسرعة المسير شمالاً وتركهم يفقدون مالهم وأرواحهم. لكن لطف الله بعباده المجاهدين نزل على هيئة جنود له من شرر، حيث سمعوا أصوات صراخ ونداء من جهة معسكر البغاة، ثم أدهشتهم ألسنة اللهب ترتفع من أحد صيوانات المهجع، رغم أن الأمطار قد بللت ألأشرعة، لكن البعض أشاروا أن الترك يتوسدون حشوات من قش جاف، كما يخزنون الحطب في الداخل لمنع تبلله، ويبدو أنهم أشعلوا نار في الداخل تطاير منها الشرر، والتهبت النار فهب البعض للنجدة وسط الدخان، وانشغلوا عن الاستطلاع فتسللت القافلة شمالاً. بعد فريضة الفجر شعر الأمير بحاجة كثير من الرفاق للنوم، بخاصة أنهم قد ابتعدوا قليلا عن مرأى العدو، بعد طلوع

الشمس سمعوا انفجارات مدوية باتجاه ضرما، وبقوة تفوق ما عهدوه سابقاً، لذا سارعوا بمغادرة المكان ومباشرة صعود العقبة شرقاً، واستأذن عدد من الرجال للتوجه شمالاً مع ركائبهم، لإيداعها عند أصهار لهم في المحمل. بينما توجه بقية الرِكاب لصعود طويق، في مسيرة ليست شاقة لكنها مُنهِكة بعد يوم صعب وليلة قاسية، وقد سرهم مشاهدة مرقب حجري يمثل بداية حدود الدرعية، لكنهم لما وصلوه وجدوه خاوياً، فتوجه أكثرهم للخلود إلى النوم مطمئنين بعد الابتعاد عن قوات الباشا. بعد الزوال استيقظوا على نداء الطعام وبحثوا عن حراس البرج فلم يعثروا لهم على أثر، لذا عزموا على الرحيل لأعلى العقبة. عند المغادرة جاءهم أربعة رجال في حالة يرثى لها، وبينوا أن القوات العثمانية قد باشرت في دك ضرما، لما علموا برحول الجميع منها، وقد استباح الباشا البلدة فدخلها الترك من الشمال وقتلوا من بقي فيها من النساء والصبيان والعجزة، ونهبوا ما وجدوه فيها مما يخف حمله، أما الأعراب فدخلوا من جهة الغرب ولم يقتلوا الكثير من بني جلدتهم، لكنهم نبشوا بيوت متوسطي الحال، الذين يعرف أن لديهم دراهم ويخفونها في قدور حديدية يدفنوها تحت الزرابي والأبسطة، وبعد ذاك عاودوا قصف البلدة وجعلوا عاليها سافلها لتكون عبرة لغيرها. كان مجرى السيل في العقبة لا يزال موحلاً، وبعض شعابه تسير فيها بقايا مطر البارحة، وكثير من الحجارة تحركت من أماكنها مما يعظم خطر تعثر الرواحل، وأفادهم الإدلاء بوجود برج مراقبة قريب لكن الشمس غابت قبل وصولهم إليه، ولم يثني ذلك عزيمة الأشداء فرأوه على بعد مع آخر شعاع الشفق. وجدوا فيه نحو خمسة عشر رجلاً مسلح، رحبوا بهم ورتبوا مكان للجلوس وآخر للمبيت في البناء الضيق، وأثناء المسامرة أخبروهم أن زملاءهم في البرج الأول ذهبوا يبحثون عن الطعام في قرية بعيدة، حيث لم يجدوا مع البدو طعام كافي، وجلسوا لأيام يتضورون جوعاً. تحدث مع الأمير أحد أعيان ضرمى من تميم، فأشاد بما يتميز به الإمام عبدالله من سجايا كريمة ومناقب طيبة وحسن تعامل، إلا أن تنظيم أعمال الدفاع عن البلاد من الغزاة، وترتيب أساليب القتال ضدهم، لا تجري على النحو الملائم، وأوصى أن يقوموا بتوجيه النصح والإرشاد له، حول أنجع السبل لإدارة المعارك بما يحقق النصر. أجابه الأمير على مضض أن الوضع مرتبك، حيث الإمام يشك أن إخوته يكيدون له، وربما يأتمرون به ليقتلوه وسبق أن بعضهم عصوا أباهم الإمام سعود الكبير قوي الشكيمة وشديد البأس، وهو يظن أننا (بنو عم والده) نطمع في الاستيلاء على منصبه، كما تحدث آخرون عن تفاصيل سياسة الأمور في الدرعية آنذاك مما فيه كثير من العبر التي سنبينها في صلب السيرة. حدثني والدي رحمه الله أن جده بحث مع الأمير مسألة الإمداد للجنود في الميدان، وكيف أن بعض من ذهبوا للقتال مع الفرنسيس (بونابرت) قبل ثلاثين سنة، أعجبوا بالنظام الدقيق لضمان "تدفق الإمدادات" لكافة مناطق الاشتباك مع العدو، كما أن الترك والفرس لديهم ترتيبات

دقيقة لتزويد العسكر بمستلزماتهم سواء من ذخيرة أو طعام وملابس، فالجنود الجوعى لا يحسنون القتال، كما أشار أنه في زمن الإمام سعود كانت تلك الأمور تدبرها الجهات العليا، أما الآن فتترك لقادة السرايا، حيث يتولى كل منهم ترتيب ذلك حسب ما يراه صواباً. عند الصباح جاءهم اثنان من حرس المرقب السفلي، وقصوا عليهم المزيد من الأنباء عن فظائع الباشا في ضرما، كما اعتذروا من الأمير لمغادرتهم موقعهم، فوبخهم ولم يعاقبهم لعلمه أنه قد يؤاخذ على ذلك، فمن أسوء أحوال الإدارة أن تعلم أن من هو أعلى منك سلطة يتربص بك، ويريد أن يظهر للغير استصغارك! بعد الضحى بلغوا قمة التل وشاهدوا وادي فسيح به أشجار طلح كثيرة، قالوا لهم أنه بداية وادي حنيفة، تصب فيه ستة شعاب متوسطة تأتي من المرتفعات الشرقية والغربية، كما رأوا على البعد نخيل قرى متفرقة، قالوا إن وراءها العيينة التي كانت أكبر مدن شمال اليمامة، قبل أن تتسع الدرعية كثيراً في حكم الأئمة السعوديين الأربعة، حيث غدت خلال السبعين سنة الماضية درة هضبة نجد، بل عاصمتها المنيعة، وكانت تلك أول مرة يشاهد فيها الجد علي الدرعية من جهة الشمال.

نختم هذا المقطع من السيرة بالإشارة لتعبير "تدفق الإمدادات" المذكور أعلاه، فقد قص علي والدي تلك الرحلة في نهاية ستينات القرن العشرين، وعندما سافرت للدراسة في "بنسلفانيا" عند نهاية الربع الثالث منه، وجدت الزملاء الذين سبقوني يتحدثون عن تطوير الجامعة لبرامج "اللوجستيكس" عبر عملها مع وزارة الدفاع في واشنطن، وكيف أن البروفيسور الرائد يسافر إلى هناك مرتين في الأسبوع، بطائرته ذات المقعد الواحد ليتابع تفاصيل المشاريع مع رجال الحكومة، وكان البعض يتساءل عن معنى ذلك العِلم وترجمته العربية، واكتفى البعض بتعليمهم طرق نطق الكلمة بدون التطرق لمعناها، منوهين أن البروفيسور لا يعمل معه في البحث ذو الإيراد العالي سوى مجموعة متميزة من الطلبة المتفوقين، وأنه قد شارك في مشروع "أبولو" الذي وضع الإنسان على القمر وأعاده سالماً قبل ذلك بسنوات قليلة. اغتاظوا مني لما أوضحت لهم أن ترتيب "تدفق الإمدادات" معروف منذ زمن الإسكندر، وما فعله الأمريكيون هو تطويره ليصبح علماً قابل للتدريس، وليس مهارة أو فناً أو موهبة يحسنها البعض بالحدس والتخمين ويجهلها الكثير، كما أنهم وضعوا معادلات رياضية وبرامج حسابية على الكومبيوترات، لإجراء متابعة دقيقة لضمان تدفق كميات كافية من الموارد، في الزمن المحدد بدقة وعدم حدوث تراكم أو عجز في الميدان.